المقتبس

الجزء الرابع من المجلد الثاني

ربيع الثاني سنة ١٣٢٥ الموافق مايو (ايار) سنة ١٩٠٧

تبذير الكبراء

الاسراف في الغالب آفة من آفات الحضارة ولا اسراف اذا لم توجد حضارة وعلى نسبة حضارة الامة وغناها يكون في الاكثر بذخها واسرافها وان شئت فقل اسراف اهل البسطة والغنى . مثاله ما نسمعه لهذا العهد عن ديار الغرب وايغال الموسرين من اهله في الانفاق على كل ما طاب وحلا و بهرج و زخرف فينفق انفرد في الشهوات والتبرج ما يكفي لاعالة عشرات الالوف اعواماً . وتأتينا عنهم انباء لا تكاد تصدق لولا تناصرها واتفاق المشاهدين لها عياناً على اثبات ما يقال ويروى . ولو استقريت تاريخ الامم لرأيت الشيء الكثير من ذلك قبل ألوف من السنين وآخر من انتهت الينا اخبار ترفهم الرومان واليونان لما بلغت الحضارة بينهم حدها .

وهذا الشرق ايضاً ما خلا في كل دور من ادواره من مسرفين كانوا اخوان الشياطين واسراف اليوم يختلف عن اسراف امس فانه كان في غابر الاحقاب مقصوراً على رجال الدول والكلمة النافذة عند الملوك والسلاطين اما اليوم فالاسراف يكون من الرعاة والرعايا معاً خصوصاً بعد ان انتقلت الثروة الى الافراد . وتاريخ العرب لم ينقل الينا سوى اخبار الامراء والملوك وما عني المؤرخون بنقل اخبار الافراد من الاغنياء ولذلك كان علينا اذا رغبنا ان نستشهد تاريخنا ونبحث في حالتنا الاجتماعية في القرون الغابرة ان نقتصر على ايراد ما انتهى الينا علمه من اخبار اولئك العظماء وهي لا تخلو من عبرة وتسلية .

خذ لك امثلة لا تستغرب بعدها زوال الممالك الشرقية ونقرأ فيها نموذجاً من تفننهم

في دورهم وقصورهم وافراحهم ومجتمعاتهم . فقد رأت الزميكية زوج المعتمد بن عباد الاندلسي الناس يبيعون في الطين فاشتهت المشي فيه فامر المعتمد فسحقت اشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على اخلاط الطيب وعجنت بالايدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها وغاضبها في بعض الايام فاقسمت انها لم ترَ منه خيراً قط قال ولا يوم الطين فاستحت واعتذرت .

ولما اقتعد ابن ابي عامر الذروة في ايام الحكم الاندلسي صنع قصراً من فضة لصبح ام هشام وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك وقامت بأمره عند سيدها الحكم وحدث الحكم خواصه بذلك وقال ان هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يتحفهم به .

وكان في دار القاهر بالله عشرة آلاف خادم من الخصيان ويفرق الضحية من الابل والبقر اربعين الف رأس ومن الغنم خمسين الف رأس . وكان عز الدولة بن بويه متوسعاً في الاخراجات والكلف وكان يتناول احد الموظفين بايقاد الشمع امامه الف منّ في كل شهر .

ولما بعث ملك الروم يتوعد المستكفي بالله بالقتال استعرض عسكره فكان جملة العسكر المصفوف مائة الف وستين الفاً ووقف الغلمان بالزينة والمناطق الذهبية وكذلك الخدم والخصيان ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة وزينت دار الخليفة بالستور والبسط فكانت جملة الستور المعلقة ثمانية وثلاثين الف ستر من الديباج المذهب وكانت جملة البسط اثنين وعشرين الف بساط وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً واوراقها من ذهب وفضة واغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور خضر من ذهب وفضة ينفخ الريح بها فيصفر كل طير بلغته .

وحكى الصابي عن بعض الرسل قال: دعينا الى باب مسعود يعني ابن محمود بن سبكتكين بغزنة فشاهدنا بالباب اصناف العساكر وملوك جرجان وطبرستان وخراسان والهند والسند والترك وقد اقيمت الفيلة عليها الاعمرة والعماريات الملبسة بالذهب مرصعة بانواع الجواهر واذا باربعة آلاف غلام مرد وقوف سماطين وفي اوساطهم مناطق الذهب وبايديهم اعمدة الذهب ومسعود جالس في سرير من الذهب لم يوضع على الارض مثله وعليه الفرش الفاخرة وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر واليواقيت وقد احاط به الغلمان الخواص باكمل زينة ثم قام مسعود الى سماط من فضة عليه خمسون خواناً من الذهب على كل خوان خمسة اطباق من ذهب فيها انواع من الاشربة فسقاهم الغلمان ثم قام مسعود الى مجلس عظيم الافطار فيه الف دست من الذهب واطباق كبار خسروانية فيها الكيزان وعلى كل طبق زراقة ذهب واطباق ذهب فيها المسك والعنبر والكافور واشجار الذهب مرصعة بالجواهر واليواقيت

وشموع من ذهب في رأس كل شمعة قطعة من الياقوت الاحمر تلمع لمعان النار واشجار العود قائمة بين ذلك وفي آخر المجلس رحى من ذهب تطحن المسك والكافور والعنبر وفي جوانب المجلس بحيرة في جوانبها من الجواهر والعنبر والفصوص شيء يقصر الوصف عنها وذكر اشياء أخر تحير الاسماء والاسماع — قاله ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار

ومما يعد في باب ترف الكبراء وسرفهم ما رواه المقريزي من أعذار (طعام الختان) بني ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي في الاندلس وكانت لهم دولة كبيرة وبلغوا سيفي البذخ والترف الى الغاية ولهم الاعذار المشهور الذي يقال له الاعذار الذنوبي وبه يضرب المثل عند اهل المغرب وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند اهل المشرق . وبوران هي ابنة الحسن بن سهل امرأة المأمون قالوا لما دخل اليها نثرت عليه جدتها الف لؤلؤة من انفس ما يكون فامر المأمون بجمعه فاعطاه بوران ثم اوقد تلك الليلة شمعة عنبر فيها اربعون منا (رطلا) وقالوا ان المأمون لم يرقه هذا الاسراف وقال فيه . واقام المأمون في معسكر الحسن سبعة عشر يوما يعد له كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج اليه وخلع الحسن على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم وكان مبلغ ما لزمه خمسين الف الف درهم وكتب الحسن اسماء ضياعه في رقاع ونثرها على القواد فمن وقعت بيده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها واوعز الى النوتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين الفا اجازوا الناس بها أخريات نهارهم .

والمتتبع لهذه الاخبار يعثر منها على الكثير ولا سيما في ايام مباهاتهم وولائمهم واعراسهم فقد روى المؤرخون ان ابا الجيش خمارويه بن طولون صاحب مصر لما زوج ابنته اسماء للمعتضد بالله العباسي على صداق قدره الف الف درهم جهزها ابوها بجهاز لم يعمل مثله حتى قيل كان لها الف هاون ذهب وشرط عليه المعتضد ان يحمل كل سنة بعد القيام بجميع وظائف مصر وارزاق جنودها مائتي الف دينار و يقال ان المعتضد اراد بزواجها افتقار الطولونية وكذا كان . وذكر ابن الاثير في حوادث سنة ثمانين واربعمائة كيف نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي الى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملا مجللة بالديباج الرومي وكان اكثر الاحمال الذهب والفضة وثلاث عماريات وعلى اربعة وسبعين بغلا مجللة بانواع الديباج الملكي واجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقا من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلي وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرسا من الخيل الرائقة عليها مراكب الذهب مرصعة بانواع الجوهر ومهد عظيم كثير الذهب وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة

كوهرائين والامير برسق وغيرهما وتقدم اجل نهر معلى عليهم الدنانير والثياب وكان السلطان قد خرج عن بغداد متصيداً ثم ارسل الخليفة — المقتدي بامر الله — الوزير ابا شجاع الى تركان خاتون زوجة السلطان وبين يديه نحو ثلثمائة موكبية ومثلها مشاعل ولم يبق في الحريم دكان الا وقد اشعل فيها الشمعة والاثنتان واكثر من ذلك وارسل الخليفة مع ظفر خادمه محفة لم ير مثلها حسناً وقال الوزير لتركان خاتون سيدنا ومولانا امير المؤمنين يقول ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها وقد اذن في نقل الوديعة الى داره فاجابت بالسمع والطاعة وحضر نظام الملك فمن دونه من اعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير وجاء نساء الامراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجملها وبين ايديهن الشمع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر اكثر شيء وقد احاط بالمحفة مائتا جارية من الاتراك بالمراكب العجيبة وسارت الى دار الخلافة وكانت ليلة مشهودة لم ير ببغداد مثلها فلما كان الغد احضر الخليفة امراء السلطان لسماط امر بعمله حكي ان فيه الف من من السكر وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر في العسكر وارسل الى الخاتون زوجة السلطان والى جميع الخواتين وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك

وهكذا كانت اعمال اولئك الرجال تصدر عنهم بلا روية ولا حساب لان الرعايا والبلاد والثروة كانت لم يتصرفون فيها بما يشاءون واين هذا الترف من ذاك الاقتصاد الذي أثر عن عمر بن عبدالعزيز وقد امر جليسه رجاء بن حيوة ان يشتري له ثوباً بستة دراهم فاتاه به فجسه وقال هو علي ما احب لولا ان فيه لينا قال رجاء: فبكيت قال: فما يبكيك قال: اتيتك وانت امير بثوب بستمائة درهم فجسسته وقلت هو علي ما احب لولا ان فيه خشونة واتيتك وانت امير المؤمنين بثوب بستة دراهم فجسسته وقلت هو علي ما احب لولا ان فيه لينا فقال: يارجاء ان لي نفساً تواقة تاقت الى فاطمة ابنة عبدالملك فتزوجتها وتاقت الى الامارة فوليتها وتاقت الى الخلافة فادركتها وقد تاقت الى الجنة فارجو ان ادركها. وقال: قومت ثياب عمر بن عبدالعزيز وهو يخطب باثني عشر درهماً وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

بل اين ذاك الاسراف من زهد نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر فانه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة

نحو العشرين ديناراً فلما استقلتها قال: ليس لي الا هذا وجميع ما يبدي انا فيه خازن للمسلمين لا امنونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك . وكذلك كان خليفته صلاح الدين يوسف ابن ايوب فانه كان على كثرة فتوحه وبسط يده على ذخائر وكنوز عظيمة لم يدخر منها شيئاً وفرقه في وجوه المبرات واقامة المعالم الخيرية حتى اذا لحق بربه لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري واربعين درهما ناصرية ولما بنى له احد رجاله في دمشق قصراً مشرفاً بهجاوبخه على عمله ولم يرض ان يسكنه لما انفق عليه من النفقات الفاحشة .

وبالجملة فتاريخ الامة يثني على المسرفين اعمالهم كما ينادي بالثناء على المقتصدين من رجالها فان جاء مثل ابن عباد وابن ابي عامر والقاهر والمستكفي والحسن بن سهل فقد جاء امثال عمر بن عبدالعزيز ونور الدين وصلاح الدين وكل منهم ذكر بعمله ولقي جزاءه في قصده واسرافه .

الانتحار

سلامٌ على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر انساً ومغنما

الانتحار واسبابه

الانتحار قتل النفس . ولا يعمد المرء اليه حتى تضيق به الدنيا او تضيق به نفسه . ولا يبعث الانسان على الانتحار باعث اشدُّ من ضياع امل له كان يعلل به قلبه او نعمة زالت كان يمرح في نعيمها او مال فقده على غير رغبة منه او أمر وقع فيه وهو لا يرجو منه فكاكاً او ذنب جناه ولا يرى له من الجزاء عليه خلاصاً او غرام كوى فؤاده وهو لا يرجو ان يطفيء ناره بماء الوصال .

وهناك باعث اشد من تلك البواعث واعني به سوء التربية ونقص التهذيب . فان النفس الساذجة كالسيف البتار الذي اغفلته الصياقل او كالحجر الكريم لا يبدو بهاؤه حتى يزيل صدأه العامل الحاذق فيبهر الابصار بنوره . والتهذيب يصقل النفوس و يظهر الفضيلة الكامنة .

وانك ترى اخا الجهل اذا ثارت براسه سورة الغضب ولم يكن الانتقام طوع بنانه اواجب حبّا اخذ برشده وغشي على بصيرته ولم ينل اربه او فقد مالاً قليلاً تعب في الحصول عليه يضيق به عقله و يثقل نفسه بيده